تجربة عزالدين القسام السورية
١٨٨٢ ــ ١٩٢١

علي حسين خلف

تُختزل تجربة الشيخ عزالدين القسام، ما قبل دوره الفلسطيني، ببضعة أسطر تغطي اسم قريته، وتتلمذه على يد الشيخ محمد عبده في الأزهر، ومشاركته في الثورة ضد الفرنسيين. مما يفسح المجال أمام الاسقاطات الذهنية من خارج التجربة، ويدفع البعض لابتكار الحكايات من أجل رتق النواقص والثغرات.

والخطأ الفادح لهذا المنهج الاسقاطي ــ الاختزالي، أنه يقدم القسام، في تجربته الفلسطينية، مجرداً من خلاصات تجاربه الأسبق، سواء التي ساهم بنفسه في صنعها، أم التي صنعتها المرحلة التاريخية وقدمت دروسها الثمينة، بعلنية ساطعة.

وفي الاطار العام، فالشيخ عزالدين القسام، لم يذهب الى فلسطين، ليبدأ تجربته الجديدة من الصفر، بل ذهب ليطبق خلاصة ما آمن به ويطوره؛ وهي خلاصة ليست بعيدة عن واقع الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك. أي انه لم يقم باستنساخ ميت لخلاصات مضت، ولا بابتكار نوعي لا جذور له. ويمكن القول ان تجربة القسام السورية، رغم نقص المصادر والمراجع، وغياب معظم معاصريها، هي المدرسة الأولى التي صقلت تطلعاته وايمانه، واختبرتها في ميدان الثورة المسلحة.

وضعف التاريخ المكتوب والشفوي لتلك المرحلة، لا يبرر للدارسين، استسهال نقل المعلومات من مصدر واحد، دون تدقيق، وباشكالية حولت القسام من شخصية حقيقية الى شخصية احتمالية. فكل الذين نسبوا تاريخ ميلاده الى عام ١٨٧١، استناداً الى كتابات صبحي ياسين، خسروا، دون أن يدروا، تتلمذه على يد الشيخ محمد عبده. اذ يكون القسام قد درس في الأزهر، قبل وجود الشيخ محمد عبده بعشر سنوات، وتخرج قبل مجيئه بسنتين! ولم يتطوع واحد من الباحثين، بذكر ماهية هذا التتلمذ، دينياً وسياسياً.

(*) الفصل الأول من كتاب «تجربة الشيخ عزالدين القسام»، الذي سيصدر عن مركز الأبحاث.